المحاضرة الثانية : المقاربة الكمية في بحوث الإعلام والاتصال

من المعلوم أن التغيرات التي شهدها القرن التاسع عشر على المنظومة الفكرية السائدة أبرزها ظهور العلوم الاجتماعية في المجتمعات الغربية ظهورا متتابعا و متسارعا وقد اعتمدت هذه العلوم في البداية على مناهج استبطانية في الغالب ثم بدأت تتأثر بالتقدم الهائل للعلوم الطبيعية نتيجة تبني هذه الأخيرة للمنهج الوضعي، فاعتقد الباحثون في حقل العلوم الإنسانية من أنصار الاتجاه الوضعي أن هذه العلوم لا يمكنها أن تصل إلى درجة العلمية إلا باعتمادها نفس المنهج المعتمد في العلوم الطبيعية ولقد كان في طليعة هؤلاء الفيلسوف "أوغست كونت" الذي طالب في إطار علم الاجتماع بضرورة استخدام مناهج علوم الطبيعة في دراسة الظواهر الاجتماعية ، وبذلك يرى أصحاب الاتجاهات الوضعية أن الوقائع الاجتماعية تخضع للملاحظة والتجريب بطرق مشابهة للطرق المستخدمة في العلوم الطبيعية فهي أشياء يمكن دراستها بمعزل عن مظاهرها الفردية والانطباعات الذاتية وتوجيه البحث والدراسة إلى كل ما هو مدرك حسيا ولذلك يتم التركيز على وصف الواقع المحسوس وصفا كميا دون اهتمام واضح بسلوك الإنسان في إطار علاقاته التاريخية أو الاجتماعية، فلا مجال لتأثير الأفكار الذاتية التي لم يتم اختبارها ومن هنا كان اهتمام الرواد الأوائل من علماء الاجتماع بالبحوث التطبيقية التي اعتمدت على الاستقصاءات وتحليل محتوى الإعلام الظاهر من أمثال "لازارسفيلد" وزملائه في بداية الثلاثينات من القرن الماضي وتأثر بها الباحثون بعد ذلك في أمريكا و في الدول الأخرى وكانت النظرية البنائية الوظيفية هي المدخل للدراسات الميدانية المتعددة التي تعتمد على الملاحظة المباشرة للأنساق والأجزاء القائمة داخل المجتمع وكانت بالتالي مدخلا لفكرة الاستقصاء والملاحظة الميدانية لسلوك الأفراد والفئات والكشف عن رد الفعل تجاه ما تقوم به وسائل الإعلام من وظائف وأدوات تمثلت في بحوث القراءة والاستماع والمشاهدة التي حاولت أن تجيب في إطار جزئي عن الأسئلة الخاصة بسلوك التعرض عند بعض الفئات واهتمامهم وتفضيلهم بما تقدمه وسائل الإعلام ومن جانب آخر تحليل محتوى الإعلام للإجابة على الأسئلة الخاصة بماذا تقول وكيف تقول وذلك في إطار الوظائف المتعددة لوسائل الإعلام.

- تعريف الدراسات الكمية

- نوع من البحوث العلمية تفترض وجود حقائق اجتماعية موضوعية منفردة ومعزولة عن مشاعر ومعتقدات الأفراد وتعتمد على الأساليب الإحصائية في الغالب في جمعها للبيانات وتحليلها.

- الدراسات التي يعتمد استخدامها على المؤشرات العددية والإحصائية لدراسة الظواهر الاجتماعية و تحليلها بصورة يسهل فهمها والتعرف على العوامل المتداخلة بها.

- طريقة تستند إلى القياس تسمح بالمقارنة بطريقة موضوعية مختلف المواضيع قيد الدراسة وهي ميزة لا تتوفر عليها المناهج الأخرى غير الكمية..

- مجموعة من الإجراءات التي تهدف إلى قياس الظاهرة.

- التحقيقات التي تسمح بجمع معلومات متشابهة من عنصر لآخر من مجموع العناصر وهو ما يسمح فيما بعد بالقيام بالإحصاءات وبشكل أعم التحليل الكمي للمعطيات .

- الدراسات التي تسعى إلى توثيق خصائص الموضوع من حيث الكمية والمدى أو القوة وضمان الموضوعية والدقة والصدق والثبات وتهدف إلى قياس المتغيرات وإنتاج أرقام تمكننا من إصدار أحكام

في شأن حالة المتغيرات المدروسة ما يسمح بمزيد من المعالجة والمقارنات كما يسمح بتكرار الدراسة أيضا .

- **أهمية الدراسات الكمية :** تتجلى أهمية الدراسات الكمية في العديد من النقاط أهمها:

- في مجال الدراسات والبحوث الإعلامية والاتصالية نجد أن استخدام المناهج الكمية قد تزايد بصورة مضطردة لظهور مجموعة من الأسباب منها:

- تزايد عدد وسائل الاتصال الجماهيري والإعلامي التي أصبحت منتشرة في جميع أنحاء العالم مثل الراديو والصحف والتلفزيون والسينما وشبكات المعلومات
- إقبال الجماهير المتزايد والذين يستخدمون هذه الوسائل في حياتهم العلمية والثقافية وأصبحت جزء أساسي من نمط الحياة الثقافية والعلمية التي لا غنى عنه في الموقف الحاضر.
- انتشار توزيع وإنتاج صناعة الإعلام والاتصال التي أصبحت نوعا من الإنتاج الكبير الذي تتميز به الصناعات الحديثة، وهذا ما يتطلب استخدام الإحصاءات بصورة مميزة وأساسية.
- تعدد أنواع المادة الإعلامية، واختلاف وسائلها وتنظيمات مؤسساتها وأيضا المتخصصين في مجال الإعلام أو القائمين على الاتصال ونوعية الآثار والنتائج التي تتركها هذه الوسائل على جمهورها المتزايد بصورة كبيرة يوما بعد يوم وتباينه واختلافه حسب متغيرات كثيرة في أنحاء العالم.

- إن أهمية الرياضيات لبحوث وسائل الإعلام من الصعب المغالاة في التأكيد عليها وكما أشار خبير القياس "غيلفورد" فإنه غالبا ما يتم الحكم على تقدم علم ما ونضجه بالمدى الذي نجح فيه في استخدام الرياضيات لأنها لغة عالمية يمكن لأي علم أو تكنولوجيا استخدامها بقوة كبيرة وملائمة فمفردات مصطلحاتها غير محددة وقوانين عملياتها لا يعلى عليها لدقتها المنطقية.

- إن إقحام بعض التقنيات الإعلامية الحديثة في استغلال نتائج الدراسات الاجتماعية الميدانية مكن من سيطرة قوية على الأوضاع ومن اقتصاد في الوقت والمال والجهد إذ أصبح من الممكن أن تحتوي الاستبيانات على عدد أكبر من المتغيرات والأسئلة دون أن يكلف الباحث عناء لا يطاق.

- إن التعبير الكمي عن البيانات من شأنه أن يؤدي إلى تحليل وتفسير أكثر دقة وموضوعية ، لذلك تساعد البحوث الكمية على إعطاء أوصاف للظواهر الاجتماعية والإنسانية على جانب كبير من الدقة العلمية حيث تسمح بمعالجة أعداد كمية هائلة من البيانات بطرق إحصائية وتوفر الدقة في وصف المشاهدات وتحليلها كوصف أو التعبير عن المتوسطات أو فروق بين الأفراد والجماعات.

- إن استخدام الإحصاء كعلم متخصص في مجال الدراسات الاجتماعية يكشف عن مدى تطور هذا العلم والوسائل الكمية في الحصول على البيانات والمعلومات التي تستخدم بصورة كبيرة في مجال التخطيط ورسم السياسات الحاضرة والمستقبلية وأيضا للتعرف على حجم الظاهرة من الناحية الواقعية.

- إن استخدام المناهج الكمية والإحصائية يساعدنا في التعرف على الكثير من المظاهر والمشاكل والعلاقات المفسرة لظاهرة الاتصال ووسائلها المختلفة فنجد على سبيل المثال أن استخدام الإحصاء يمكن أن يميز بين حجم الجمهور الذي يستخدم وسيلة اتصالية عن وسيلة أخرى ،كما أن دراسة أسباب الإقبال أو الإحجام من الجمهور بصورة تحليلية مميزة تقوم أساسا على استخدام الوسائل الكمية التي تساعد أيضا

في فهم الأسباب التي تؤدي إلى الإقبال الجماهيري على قراءة أو سماع أو مشاهدة برامج إذاعية أو تليفزيونية أو مقالات صحفية معينة داخل هذه الوسائل ذاتها وهذا ما يفسر عموما مجموعة من العوامل التي تجعل أيضا أسباب إقبال أو عزوف الجماهير على استخدام وسائل الاتصال الجماهيري في أوقات معينة دون الأخرى.

- إن استخدام المناهج الكمية والإحصاءات ساعد كثيرا في تطوير مراكز البحوث الاتصالية والإعلان ولا سيما مراكز استطلاعات الرأي وقياس الاتجاهات المتنوعة والمنتشرة على المستوى الجماعي أو الإقليمي أو المحلي والتي تسهم في التعرف على مشكلات وقضايا كثيرة ترتبط بالحياة اليومية الثقافية والسياسية مثل استطلاعات الرأي العام حول عمليات الانتخاب أو التصويت أو آراء الجماهير حول مشكلة بيئية أو اجتماعية أو اقتصادية معينة .

- إن استخدام المناهج الكمية طور ما يعرف بالبحوث المسحية في بحوث الاتصال والتي لعبت دورا ولا تزال في عمليات استطلاع آراء الجماهير والباحثين المتخصصين وأيضا القائمين على عمليات الاتصال الجماهيري كما عززت عموما من عمليات البحث العلمي وقدرته في الكشف عن التنبؤات السريعة أو الحاضرة وبعيدة المدى حول العديد من المشكلات والظواهر.

- تبرز أهمية المقاربة الكمية في مجموعة من نقاط القوة والتي تجعل الباحث يتجه نحو التكميم رغبة في التبسيط وزيادة الصرامة العلمية وسد ثغرات النقد وهي:

- القابلية للقياس كمعيار للعلمية: فما هو غير قابل للقياس الكمي بواسطة التقنيات المعروفة والمعمول بها فلا وجود له.
- الطبيعة الرمزية للأرقام: فالقيمة الرمزية للأرقام تعود لخصائصها الرياضية كما أن التمثيلات الرقمية تمتلك قدرة كبيرة على التأثير في التصور وفي قدرة التصور على فهم العالم.
- الأرقام كحماية للباحث: فاستعمال البرمجيات المنتجة من قبل المتخصصين في تحليل البيانات تمنح الباحث في التسيير خبرة تطمئنه وتوجهه في عمله وتعوض صعوبة الدراسة المعمقة.
- الأرقام كلغة مشتركة: فالتمثيلات الرقمية الناتجة عن تكميم طرق البحث تعتبر سهلة الترجمة والتفسير من قبل الباحثين كما تظهر كإشارات منبهة تسهل الفهم.

خصائص البحث الكمي

- إن الالتزام بالوضعية الاجتماعية ومقولاتها الشائعة التي تمثلت في الاهتمام بالدراسات التجريبية والتطبيقية كأساس لبناء النظريات والالتزام بالحياد والموضوعية من خلال المنهج الصارم وأدواته في الضبط الكمي والاتجاه نحو دراسة الجزء أدى إلى وصف الدراسات الإعلامية بالآتي:

- أنها تتمسك بالتطبيق والتجريب الميداني بداية للوصول إلى المعرفة الحسية التي يمكن اختبارها والتحقق من صدقها وهي خاصية الإمبريقية.
- الالتزام بتطبيقات المنهج العلمي في العلوم الطبيعية الذي يؤكد التزام الباحث وحياده في البحث والدراسة بما يحقق مطلب الموضوعية.

- محاولة الضبط المنهجي من خلال استخدام أدوات منهجية للقياس والتقدير والتقرير بأوصاف لا يمكن الاختلاف عليها وهي الأوصاف الرياضية أو الإحصائية وهو ما يعرف بالتكميم أو الالتزام بالكم في الوصف والتقدير.
- الاعتماد على الاستقراء بدراسة الجزء أولا للوصول إلى وصف الكل أي الاهتمام بالدراسة الجزئية للظاهرة الإعلامية .

- إن الأسس النظرية للمنهجية الكمية هي الأسس نفسها التي تقوم عليها الوضعية التي يوجهها علم للكينونة واقعي وموضوعي وعلم للمعرفة تجريبي وهذا ما يؤدي إلى منهجية كمية وفيما يلي المعايير الأساسية لهذه المنهجية:

- إدراك الواقع: تنظر إلى الواقع بوصفه شيئا موضوعيا وبسيطا وثابتا ويتكون من انطباعات حسية تدركها الحواس وحدها كما أن هناك واقعا واحدا في الطبيعة وحقيقة واحدة أيضا والواقع مستقل عن الوعي الإنساني ويرتكز على نظام تحكمه قوانين طبيعية صارمة وثابتة ،وتساعد معرفة هذه القوانين في التحكم بمخرجات الفعل البشري والتنبؤ بها ،ويعرف جميع أفراد المجتمع الواقع بالطريقة نفسها لأن الأشياء تولد المعاني نفسها والناس يرونها ويسمونها بالطريقة نفسها.
- إدراك الإنسان: البشر أفراد عقلانيون تحكمهم قوانين اجتماعية ويدرس سلوكهم بالملاحظة وتحكمه أسباب خارجية تؤدي إلى نتائج ثابتة ويشكل البشر وفقا لعالمهم الاجتماعي على نحو ما وتحكم العالم المادي قوانين ثابتة فهم يخضعون لأنماط حياتية ثابتة يمكن ملاحظتها تجريبيا .
- غرض البحث الاجتماعي: ينظر الباحث الكمي إلى البحث الاجتماعي بطريقة أداتية بوصفه أداة لدراسة الحوادث الاجتماعية ومعرفتها ومعرفة العلاقات فيما بينها لنتمكن من اكتشاف القوانين السببية العامة وتفسيرها وتوثيقها فالمعرفة بالحوادث والقوانين الاجتماعية تمكن المجتمع من التحكم بالحوادث والتنبؤ بوقوعها ونتائجها.
- طبيعة العلم الاجتماعي: هنا يكون العلم الذي هو أداة تحصيل المعرفة متميزا ب:
- ✓ مرتكزا على قواعد وإجراءات صارمة وهو يختلف جذريا عن التأمل والبصيرة والفهم الشائع والحس السليم.
- ✓ استدلاليا ينتقل من العام المجرد إلى المحدد الملموس.
- ✓ مقننا يرتكز على قوانين سببية كونية تؤثر في مجرى الحوادث والعلاقات الاجتماعية
- ✓ معتمدا على المعرفة التي نحصل عليها نتيجة خبرات الحواس وتعد مصادر المعرفة الأخرى غير موثوق بها ذلك أن الملاحظة والخبرة أساس المعرفة وتكون مهمة الباحث اكتشاف القوانين العلمية التي تفسر سلوك الإنسان باستخدام الطرائق الكمية التي تشبه الطرائق المستخدمة في العلوم الطبيعية.

- يرتبط البحث الكمي أساسا بمفهوم القياس والذي يدل على استخدام لغة الأرقام والإحصاء للتعبير عن خصائص الظواهر وفقا لمجموعة من القواعد. لذلك تهدف المناهج الكمية في الأساس إلى قياس الظاهرة موضوع الدراسة وقد تكون هذه القياسات من النوع الترتيبي مثل أكثر من، أقل من أو عددية وذلك باستعمال الحساب فأغلبية البحوث في العلوم الإنسانية تستعمل القياس من خلال المؤشرات النسب المتوسطات أو الأدوات التي يوفرها الإحصاء.